رؤية المؤرخ أبو القاسم سعد الله للحقبة العثمانية في الجزائر 1516-1830م(•).

د. فاتح رجب قدارة
قسم التاريخ- كلية الآداب -الزاوية
جامعة الزاوية

تمهيد:

تعد الحقبة العثمانية في تاريخ العرب الحديث من أكثر الحقب التاريخية إثـــارة للجـــدل والنقاش بين الكتاب والمؤرخين العرب منذ مطلع القرن العشرين، بين مندد بهذه الحقبة ومحمـــل

• قدم هذا البحث الى المؤتمر الدولي: أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا ، الذي عقد بكليـــة العلـــوم الاجتماعيـــة والإنسانية – جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي- بالجزائر، وذلك يومي 13 – 14 ديسمبر2015م.

إياه كل ما لحق بالبلاد العربية من تخلف، وانحطاط، ومن ثم استعمار، وبين ممجد لهـا بعـدّها امتداداً للخلافة الإسلامية وأمجادها التليدة، وما الدعوة القومية "**العربية**" إلا مؤامرة غربية علـى الخلافة، وعلى الإسلام، بحيث شكل هذا الجدل والنقاش التاريخي ما يشبه التيارين البحثيين فـي **الكتابة التاريخية العربية المعاصرة**، ولعله وبسبب اشتداد هذا الجدل كان المرجعيـة الأساسـية لبروز ملامح تيار بحثي جديد يُعنى بالدراسات العثمانية في العقود الأخيرة، يدعو إلـى **إعـادة قراءة تاريخية للحقبة العثمانية بموضوعية علمية** بعيداً عن تأثيرات الأيدولوجيات السياسـية، داعياً إلى التصالح مع هذه الحقبة[1].

ومؤرخنا **أبو القاسم سعد الله**[*] المهتم بالتاريخ الجزائري الحـديث والمعاصـر، وجـد نفسه وسط هذا الجدل التاريخي، فتقاطعت اهتماماته بالتاريخ الوطني الجزائري بالضرورة مـع الحقبة العثمانية، فكان ذلك المرجعيات التي دعته للتعميق في العهد العثماني، لفهم علاقته بالدولة الجزائرية خلال الفترة 1516–1830م[2]، في محاولة للتأسيس **لرؤيـة وطنيـة جزائريـة** فـي التعامل مع أحداث ووقائع هذه الحقبة، لكونها من المراحل التاريخية الجزائرية التي تعرضت لـ "**تشويه فظيع على أيدي كتاب المدرسة الاستعمارية،.. وحين حصلنا على استقلالنا كان علينـا أن نصفي تاريخنا من روح الاستعمار، وأن نلجأ في ذلك إلـى العلـم والمنهجيـة، واللغـات الأخرى، لأن مؤرخي الاستعمار استعملوا كل ذلك ضدنا**"[3].

وعلى الرغم من أن سعد الله كان يحمل **مشروعاً إحيائياً للتاريخ والتراث الجزائري في العصر الحديث**، إلا أن معاصرته للأحداث الجزائرية، والعربية الجسام منذ مطلع الستينات مـن القرن الماضي جعلت إنتاجه العلمي يتشتت بين مراحل تاريخية متباعدة، وقضايا سياسية راهنـة أعطت لإنتاجه طعماً خاصاً، من حيث التنوع، والخفة البحثية، واليسر فـي التنـاول، والطـرح

المباشر والجريء في أحيان كثيرة، وهذا التنوع لم يبعد مؤرخنا عن القضيتين الرئيستين في مشروعه التاريخي وهما في تقديرنا: **الحقبة العثمانية في الجزائر**، و **الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي**، لاعتقاده الجازم بأن هاتين القضيتين التاريخيتين كانتا منطلقات في مشروعه التاريخي للجزائر المستقلة، المرحلة التي حتمت على كل شعب حديث الاستقلال أن يرتد إلى تاريخه وحضارته وإلى سير أبطالهم "**وسجل الفتوحات والانتصارات، وروائع الأدب والفن والأخلاق والعادات، يعود إلى هذا كله لإحيائه وبثه في الحياة الجديدة إيمانا منه بوحدة الحياة القومية واستمرارها**"[4]، وهذا المنحى كان واضحاً في كتابات سعد الله **التأسيسية** في الستينات والسبعينات من القرن الماضي التي جمعها في موسوعته المتعددة الأجزاء المعنونة بـ **(أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر)** بأجزائه المتعددة[5]، ومن الواضح أن هذا العنوان اختير بعناية غير ملزمة للمؤرخ بأنه يقدم تاريخاً قطعياً، أو الحقيقة كاملة، بل يحيل قارئه إلى موضوعات ومناطق مهمة في كتابه التاريخ الجزائي، والعربي الحديث، ويدعو الباحثين والمهتمين بالدراسات التاريخية للتمعن في تلك الموضوعات والآراء التي ضمنها موسوعته[6]، التي يفرد فيها حيزاً مهماً **للجزائر العثمانية** في حوادثها وآرائه التي لا يمكن التعاطي معها وتقيمها من دون التوقف برهة أمام رؤية بعض المؤرخين العرب في الحقبة العثمانية بعدّها مرشداً لنا لرصد رؤية مؤرخنا سعد الله في الحقبة العثمانية في الجزائر.

I. الحقبة العثمانية بين المؤرخين العرب:

على الرغم من مرور ما يقارب قرن ونصف على بروز الحركة القومية العربية أو ما يسمى بالنهضة في المشرق العربي، التي تبلورت رؤيتها القومية وبناة نهضتها على خلفيات **العداء والتنديد** بالحقبة العثمانية، وما صاحب ذلك من سيل من الكتابات التاريخية، والأدبية والسياسية، والشعرية، التي وضعت جملة من التصورات الذهنية السلبية في توصيف الحقبة

العثمانية والعثمانيين، تصورات قد تكون حتمتها اللحظة التاريخية للانفصال العربي العثماني، أو الخروج العربي "المشرقي" عن الدولة العثمانية الآخذة في الترنح والانهيار أثناء الحرب العالمية الأولى.

لكن تلك التصورات الآنية في لحظتها التاريخية أضحت مع مرور الزمن الخطوط العريضة للباحثين والمؤرخين المعنيين بالتاريخ العربي الحديث، عليهم السير بمقتضى تلك الخطوط، والتأريخ من خلالها للعهد العثماني في الولايات العربية، ولعل هذا ما جعل محمد عفيفي يقول: **عندما يتطرق المرء إلى الحديث عن الحقبة العثمانية، فإنه من المؤكد يصطدم بحقل الأيدولوجيا والخلافات النظرية الجدلية بشكل كبير**[7]، ويرجع ذلك بالأساس إلى الكيفية التي نظر من خلالها المؤرخون العرب إلى ماضيهم العثماني الذي تعددت حوله الرؤى بين الوطنية، والقومية، والإسلامية والحضارية، الأمر الذي ترتب عليه استمرار حالة الجدل غير المثمر، لاسيما وسط سيطرة مفهوم **الانحطاط العثماني** الذي أصبح بارزاً في جل الكتابات التاريخية العربية التقليدية، مجاراة للخط العام الذي أسس له كتاب ومؤرخو عصر النهضة العربية، الذين تبنوا مفهوم الانحطاط العثماني في أبعاده المختلفة على نسق الكتابات التاريخية الأوروبية الذي يعلق عليه (كارل بربير karl Barbir) بقوله: "**هذا المفهوم دخل الكتابات القومية في الشرق الأوسط خلال فترة أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وأصبح نقطة إلتقاء للتواريخ العربية والتركية، مردداً لصدى وجهة النظر الأوروبية بشكل غير نقاد، ومستخدماً إيّاها لأسباب مختلفة تماماً**"[8].

إلا أن تلك التصورات لم تمنع من تبلور الكثير من الرؤى المغايرة بين الجانبين العربي والتركي، غير جدلية تحميل المسؤولية التاريخية عن انهيار، أو خيانة الدولة العثمانية، وحشدت لتلك الجدلية أقلام المؤرخين والساسة، وعقدت المؤتمرات، والندوات العلمية التي لم تقدم الجديد

بل ظلت مقولات وتصورات لحظة الانفصال هي السائدة في الدراسات التاريخية على الجانبي العربي المشرقي والتركي المعاصر[9]، ومن ثم وجدت تلك الصعوبات والمحاذير من الاقتراب من الحقبة العثمانية بموضوعية علمية، الأمر الذي حدا بكثير من الباحثين في تاريخ العهد العثماني إلى مجاراة الإرث القومي العربي المشحون، أو اجترار كثير من المقولات والطروحات السياسية المؤدلجة في سياق الدراسات العثمانية، اجترار يهدف من ورائه محاولة "بعض" الباحثين التناغم مع الخط العام للمناخ السياسي أو الأيدلوجي السائد، والمترصد بترسانة من الاتهامات الخطيرة لكل معارض لهذا الخط، فكل محاولة لإنصاف العهد العثماني، يعدّها أولئك المؤرخون القوميون محاولة تقع في دائرة الأيدولوجية الدينية الرجعية المعادية للمشروع القومي العربي، أو عدّ الباحث ضمن أنصار: الاتجاه العثماني، وانشغل هذا الاتجاه بكشف الأثر الامبريالي في تكوين الحركة القومية، وتفتت السلطنة العثمانية[10]، واستخدم البعض الآخر تهما أكثر حدة تجاه الداعين إلى إعادة قراءة تاريخ الحقبة العثمانية بموضوعية .

من ذلك ما سطره الباحث الفلسطيني **سلامة كيله** في رده على أفكار وآراء عبد الإله بلقزيز –القومي المغاربي– الرد الذي صدره بتهمة مسبقة بأن عنون رده بـ "**النزعة العثمانية في الفكر الغربي الحديث**" الذي شحنه بعدد كبير من الاتهامات الصريحة، والمبطنة، أو غير العلمية تصب جميعها في اتهام كل مقترب بشكل إيجابي من الحقبة العثمانية بالانتقائية والنزعة العثمانية، وعدت محاولة قراءة تاريخ هذا العهد قراءة موضوعية ما هي إلا : " **كونها لوناً من ألوان التوحيد العربي– التركي**"[11] وغير ذلك من الاتهامات السياسية لكل محاولة لإنصاف هذا العهد لاسيما في ظل النظم العربية الثورية والتقدمية التي حملت شعار **إعادة كتابة تاريخ الأمة العربية**، وردت في خطابها السياسي والتاريخي الرسمي أسباب التخلف العربي إلى الحقبة العثمانية، ولعل لهذه النظم مبرراتها بعد فشل مخططتها للنهضة، واضطرارها إلى اللجوء إلى

التاريخ بحثاً عما يحمل ويتحمل مسؤولية ذلك الفشل، وكما يشير وجيه كوثراني إلى أن ذلك محاولة "**الاختزال عملية التخلف التاريخي التي دخلت وعي المثقفين العرب في مرحلة سيطرة الغرب، وأسقطت الأسباب التي أدت إلى هذا التخلف**[12].

وبعيداً عن هذا الجدل الفكري، فإن البحث التاريخي الأكاديمي العربي عمد وتحت تأثيرات الأيدولوجية السياسية التقدمية العربية إلى وضع ما يشبه المعايير الاستباقية للباحث حول العهد العثماني تنطلق من فرضية التنديد بهذا العهد، ونلمس ذلك في كثير من الكتابات التنظيرية في البحث التاريخي المعاصرة، ومنها ما تقول به فاطمة الشامي التي توصف أثر علم التاريخ على الدول العربية أثناء العهد العثماني، بقولها: "**علم التاريخ في الدول العربية– توقف بسبب سوء الأوضاع السياسية وخضوع العرب للحكم المملوكي والعثماني، الذي أبعد وظيفة العقل عن الفكر التاريخي، حيث شطب علم التاريخ من واقع الدول العربية الخاضعة للحكم العثماني، وكان ذلك السبب الكافي لتعثر النهضة**"[13]، وهو دعوة صريحة للباحثين لتبني رؤية قومية محددة في كتابة التاريخ القومي، ولكن قد نتجرأ بالحديث عن **الخصوصية التاريخية المغاربية** في العلاقة مع الدولة، والعهد العثماني، الخصوصية التي لم تكن في الأغلب محل تفهم من المؤرخين العرب المشارقة الذين تعددت اجتهاداتهم في تفسير تلك الرؤية الإيجابية للحقبة العثمانية من جانب الباحثين المغاربة.

إن الحديث عن خصوصية مغاربية مع العهد العثماني، طرح تأريخي قد لا يمت بصلة مباشرة للجدل العربي القائم بين **المشارقة، والمغاربة**، وإن كنا نتصور بأن هناك خصوصية في العلاقات المغاربية العثمانية تجاوزت كل مساوئ ممارسات الإدارة العثمانية المحلية في إيالات الشمال الأفريقي بما فيها مصر، الخصوصية التي نلمسها في الكتابات التاريخية العربية المشرقية، التي اعتمدت منهج **الإلحاق**، و**الإسقاط** على التأريخ للعهد العثماني في الشمال

الأفريقي، بذات الآليات والمفاهيم المشرقية للتاريخ العثماني، على الرغم من المحاولات المغاربية لرفض تلك الطروحات والرد عليها، الأمر الذي دعا بعض المؤرخين القوميين العرب للرد عليها، فكان ردهم ورؤيتهم أكثر إقصاءاً للمغاربة عن ما يسمى بالمشروع القومي العربي.

على الرغم من اقتناع البعض من المؤرخين بأن هناك خصائص "قطرية" متميزة في البلاد العربية بسبب اختلاف الظروف التاريخية والموقع الجغرافي واختلاف الأنماط الاجتماعية[14]، التي تمثلت بجلاء في توصيف الحضور العثماني في المجال المغاربي بالتأثير المباشر في بلورة الرؤية المغاربية للعهد العثماني، الخصوصية التي كثيراً ما عجز المؤرخون العرب المشارقة عن استيعابها، والعجز في الفهم الذي بالتأكيد يقود إلى سوء التحليل والتنظير لهذه الخصوصية، ومن ذلك المؤرخة القومية **خيرية قاسمية** التي رصدت هذه الخصوصية المغاربية العثمانية ففسرتها بقولها: " **لا شك أن مفهوم العروبة في المغرب العربي أخذ في التاريخ الحديث مدلولاً يتميز شيئاً ما عن المدلول الذي أخذه في المشرق العربي، بسبب الموقف من الدولة العثمانية، وظروف الاحتلال وحركات التحرر في تلك الأجزاء، بحيث برزت في الأجزاء المغاربية شعوراً وطنياً خاصاً أشبه بالدعوة إلى الجهاد لصد التدخل الأوروبي، وظل يعلق آماله حتى الحرب العالمية الأولى على الدولة العثمانية، في وقت تكاتفت فيه الأجزاء الشرقية ضد العثمانيين**[15].

وفي سياق متصل بالاجتهاد السابق بين المؤرخين القوميين المشارقة التي تفسر أسباب المواقف المغاربية المتعاطفة مع الحقبة العثمانية، ومن ذلك تعبير المؤرخ عبد الكريم غرايبة الذي يقول :" **أما عرب أفريقيا الذين سلخهم الغرب بقوة عن الدولة العثمانية، فإنهم لم يعانوا من التتريك العثماني على يد الاتحاديين، لذا تمسكوا بالرابطة العثمانية، وتعلقوا بالخليفة السلطان بعاطفة قوية، ولم يشعروا بتحول الدولة إلى دولة قومية تركية، ولم يتفهم عرب**

أفريقيا آلام عرب آسيا، وشجبوا بعنف الأفارقة تحولهم عن دولة الخلافة وتحالفهم مع دول معادية لأماني عرب أفريقيا...وهذا ما دعا مثقفي عرب آسيا إلى استبعاد الأفارقة العرب من أحزابهم وتكتلاتهم ومؤتمراتهم[16]. عشية اندلاع ما يسمى بالثورة العربية الكبرى ضد العثمانيين سنة 1916م، وهذه الخصوصية الإشكالية تصدى لها أبوالقاسم سعد الله بقوة في كتاباته ومؤرخاته التي قد يتهيأ لقارئ بعض ثنايها أنها ما سطرت إلا تعبيرا على الخصوصية، وردا على مقولات وطروحات المؤرخين المشارقة

ومن الواضح أن الخصوصية المغاربية عموماً تجاه الحقبة العثمانية هي التي قادت غرايبة، وقاسمية، وغيرهم إلى إصدار تلك الأحكام المطلقة بفقدان الشعور وعدم الفهم، والتي تعتقد بأن مرجعها قزمة المؤرخين العرب المشارقة، وبعدهم عن العقلانية التاريخية، وشيء من التشنجات في النظر إلى العهد العثماني، مما أوجد مضماراً آخر للجدل بين المشارقة والمغاربة، وهو جدل البحث عن رؤية لكتابة التاريخ العربي في الحقبة العثمانية، الجدل الذي ظل مصاحباً لمسيرة هذا التاريخ وسط كثير من الاجتهادات[17] والاختلاف، الذي أرجعه البعض إلى التمايز بين النظرة نحو فكرة القومية العربية بين المشارقة والمغاربة، حيث امتزجت الفكرة القومية بالدين في المغرب العربي في حين نشأ جدل فكري في المشرق حول العلاقة بين القومية والدين[18]، وعلى الرغم من ذلك الجدل فإن الحقيقة التاريخية تظل مائلة للعيان وإن تعددت الرؤى والتفسيرات.

وعلى الجانب الآخر، تحدث عدد من المؤرخين المغاربة عن هذه الخصوصية تجاه العهد العثماني، أو خصوصية كل إيالة في علاقاتها مع المجال العثماني، الخصوصية التي قد نؤسس لها من ذلك الموقف المبكر **للأمير خالد الجزائري** حفيد الأمير عبد القادر، الذي رد على دعوة زعماء المؤتمر القومي العربي الأول في باريس 1913م، برد **توافقي** بين التيار

النهضوي العربي القومي، والولاء للخلافة العثمانية، ومما جاء في هذا الرد التوافقي قوله: "لا شك في أن الدولة العثمانية توافق على طلبنا إذ بتحسين الإدارة الداخلية، ترتقي فيه سوريا أوج المعالي، وبترقيتها تكون نتيجة حسنة للدولة العلية، هذا مع أن المراد عدم الخروج من تحت سلطتها فالمولى يوفق الجميع لما فيه صلاح الوطن والأمة"[19] موقفاً توافقياً يعبر عن الخصوصية المغاربية، ولم يكن يقبل به في تلك اللحظات التي تصاعد فيها العداء العربي العثماني، وهذا ما يجعلنا ندفع بمظاهر تلك الخصوصية في العلاقات المغاربية العثمانية، والتي كانت حاضرة في مسيرة الدراسات العثمانية المغاربية على الرغم من مزاحمة مقولات ورؤية التيار القومي لهذه الخصوصية.

ولم يكن المؤرخ الجزائري **أبو القاسم سعد الله** ببعيد عن النقاش والجدل الفكري، حيث كان منشغلاً بآراء العرب المشارقة في مختلف الآراء المعروضة للبحث والنقاش في عصره، لاسيما إشكالية التعاطي التاريخي مع الحقبة العثمانية، وقد لا نجد بين إنتاج مؤرخنا مبررات شافية لأسلوب المحاججة، ونقض طروحات ومقولات المشارقة، الذي لجأ إليه في ثنايا عدد من كتاباته، عدا عدّ ذلك حالة من حالات التفاعل المنتج للثقافة والتاريخ الوطني الجزائري في سياقه القومي العربي، لذلك نجد سعد الله يجاهر بعدد من الطروحات "المغاربية" المغايرة لكل الطروحات العربية المشرقية، التي من أبرزها رؤيته لنشأة القومية العربية، وعد حمدون خوجة الجزائري 1773–1840م، رائدا للقومية العربية، ويحاول البرهنة على هذا الطرح من خلال نسف كل الطروحات السائدة[20]، أو من خلال طرح رؤيته "الجزائرية" بشأن سياسة العثمنة، والتتريك العثمانية في الجزائر قبل المشرق العربي بوقت طويل، وغيرها من القضايا والإشكاليات التاريخية التي جعلته في جدل ونقاش صريح مع كتاب ومؤرخي المشرق العربي،

الذين حاولوا ممارسة مركزية ثقافية على المغاربة كما يصف ذلك سعد الله[21]، رصد رؤيته للحقبة العثمانية من خلال المحورين الرئيسين الآتيين وهما:

- تحقيب الحقبة العثمانية في رؤية سعد الله.
- رؤية سعد الله للحقبة العثمانية في الجزائر.

II. تحقيب الحقبة العثمانية في رؤية سعد الله:

إن التقسيمات الزمنية أو (التحقيب التاريخي) يُعد إحدى القضايا المهمة التي شغلت الباحثين التاريخيين، لذلك أفردت لها المدارس التاريخية الكبرى مساحة من الاهتمام بين المؤرخين الأوربيين الذين وضعوا تحقيبهم الثلاثي **(قديم، وسيط، وحديث)** الذي تبناه الكثير من مؤرخي العالم الثالث لاسيما العرب الذين اتخذوا من التدخل العثماني في المشرق، والمغرب العربي، **بداية للتأريخ الحديث للوطن العربي**، في أغلب الكتابات لاسيما الأكاديمية منها[22]، وهي القضية التي حظيت باهتمام مؤرخنا سعد الله في مؤرخاته، على الرغم من أنه نكرها عرضاً في مباحثه، واستهلالته لبعض أعماله التاريخية المجمعة، بحيث عبر فيها عن رؤية تاريخية وأضحت المعالم، تعبر بشكل محكم وذكي عن تناغم تلك الرؤية مع رؤيته وتقييمه للحقبة العثمانية في الجزائر، وغيرها من البلاد العربية التي أخضعت للسيادة العثمانية.

يرفض سعد الله عدّ الحقبة العثمانية **تاريخاً حديثاً في الجزائر**، والولايات العثمانية العربية، بل امتداداً للعصور الوسطى في التاريخ الجزائري، والعالم الثالث عموماً، ويتسع هذا الرفض ليشمل التقسيم الثلاثي الشائع في الدراسات العربية[23] المستنسخة عن التحقيب الأوروبي، لاسيما الحديث منه.

تشير الأدبيات التي اهتمت بالتنظير للتحقيب التاريخي، إلى أن هذا التقسيم الثلاثي المتداول (قديم، وسيط، أو إسلامي، وحديث) يرجع ظهوره إلى القرن السابع عشر، كأحد

مظاهر النهضة العلمية الأوروبية الحديثة، تحقيب يمنح الإنسان الأوروبي دليلاً سهلاً لتتبع أهم مراحل تاريخه، ويسمح له بتأسيس وعي تاريخي حقيقي، لذلك فإن إسقاطه على التاريخ العربي نجم عنه مشاكل حقيقية بسبب الخلط والمغالطات التي يثيرها ويسببها في فهمنا لهذا التاريخ[24]، وهذه الحقيقة التي دعت سعد الله لمناقشة هذا التحقيب وإبداء آراءه فيها، والتدليل علمياً على تلك الآراء.

يبدأ مؤرخنا رفضه لبداية العصر أو التاريخ الحديث للجزائر والعالم العربي بمجيء العثمانيين مطلع القرن السادس عشر، بطرح التساؤلات المنطقية عن " **مدى حدوث المنعطفات الأوروبية والمميزات التي تميزه عن غيره من الفترات التاريخية، ومن هذه المميزات ظهور الكيانات السياسية الموجودة اليوم، ونمو المدن، ومن ثم الطبقة الوسطى، ووفرة رأس المال والتقدم العلمي، والنظريات في مختلف مجالات الفكر، وهل هذه المميزات تنطبق على التاريخ العربي الإسلامي بالمفهوم السابق**"[25].

بهذه التساؤلات المنطقية يتجاوز مؤرخنا كل الأفكار والآراء حول نهاية العصور الوسطى التي ترتبط جميعها بما حدث من متغيرات في المجتمعات الأوروبية الوسيطية التي أدت إلى تحولات جذرية في حياة تلك المجتمعات التي صارت مجتمعات أخرى أطلق عليها مجتمعات التاريخ الأوروبي الحديث[26]، ولا علاقة لها بالمجتمعات الإسلامية، والمغاربية خصوصاً التي عرفت مع مجيء العثمانيين تغييراً فوقياً في السلطة الحاكمة، بدخولها تحت سيادة الدولة العثمانية التي كان مضمون ممارستها الإدارية، وتقاليدها السلطوية امتداداً للخلافات والسلطات الإسلامية الوسيطية، وهذه الحقائق لم تكن خافية على سعد الله، وهو المتبحر في التواريخ الأخرى الأوروبية والآسيوية، الأمر الذي جعله دائماً في موقف المقارنة بين تلك التواريخ والتاريخ الجزائري، ويقر بذلك قائلاً: " **فكلما قرأت كتاباً عن مشاكل أوروبا السياسية**

والاجتماعية والثقافية والدبلوماسية أو عن ثورات الأقليات وظهور القوميات إلا طـــار فكـــري إلى الجزائر وأهلها ونضالهم وتراثهم الذي كاد ينساه التاريخ"[27].

وعلى ذلك فإن مؤرخنا مجاهر برفض التقسيم الثلاثي للتاريخ الجزائري، وهي المجاهرة التي عمد إلى التدليل عليها في نموذجها الجزائري الذي أرخ له في تاريخه الحديث ببداية العهـــد العثماني، العهد الذي رأى فيه سعد الله بأنه لم يأت بجديد لا في الكيانات السياسية ولا في التنظيم الاجتماعي ولا في التقدم العلمي " **فلماذا إذن نطلق على عهدهم عهد التاريخ الحديث، ولمـــاذا نظل على هذا التقليد للأوربيين في فرع من فروع المعرفة ذات التأثير القوي على حياتنا مـــن جميع جوانبها كالتـــاريخ**"[28]، وبهذا الأسلوب الذي يعتمده سعد الله القائم على طرح التســـاؤلات والإشكاليات التاريخية بفتح المجال للدارسين لآثاره، لمعارضة بعض ما يطرحه مـــن تســـاؤلات من خلال مؤرخاته، ونموذجه الجزائري.

فمن المسلم به أنه من غير الميسور تحديد نهاية مرحلـــة العصـــور الوســـطى وبدايـــة العصور الحديثة في أوروبا والعالم، فالتاريخ يرتبط أساســـاً بحركـــة الإنســـان وتطـــوره عبـــر العصور، ولذا فهو لا يخضع لقواعد وحدود ثابتة، بحيث يستحيل رسم خطٍ واضحٍ نجعـــل منـــه فاصلاً يدلنا على مرحلتين أو حقبتين من تاريخ الإنسان، فالانتقال يتم عادة بشكل بطيء يصـــعب معه تمييز معالم التغيير بشكل واضح وفي فترة زمنية قصيرة، ثم أن الانتقال من عصـــر إلـــى آخر قد لا يتم في وقت واحد وفي كل البلدان[29] لذلك كان الانتقال من العصور الوســـطى إلـــى العصور الحديثة عملية بطيئة لم تحدث بين عشية وضحاها، بل وقعت تدريجياً، ومن الواضـــح أن الجزائر مرت بما يشبه **المرحلة الانتقالية** بين التاريخ الوسيط، والحديث أثناء العهد العثماني، وبالطبيعة ليس بالخصائص والمميزات التي عرفتها شبة الجزيرة الإيطالية.

وبعيداً عن إصدار أحكام تعميمية عن الحقبة العثمانية في الجزائر، إلا أنه مما لا شك فيه أن مجيء العثمانيين إلى الجزائر في لحظة تاريخية عرفت حالة من حالات الضعف والتهالك والتشرذم بين القوى المحلية، الأمر الذي جعلها مطمعاً للمتمردين والغزاة، فكانت سيطرة العثمانيين تُعنى فيها التأسيس لإدارة عثمانية للإيالة، إدارة لها تقاليدها ومعاملاتها التي تختلف كلياً عن الإدارة القديمة التي كانت موجودة أثناء العهد الحفصي من جميع النواحي[30]، والتي تعددت مساوئها وممارساتها تجاه أهالي الإيالة، ولكنها ذات الإدارة التي قادت العمليات الجهادية في البحر المتوسط، ونمت في رحمها الروح الاستقلالية عن الدولة العثمانية من خلال تصريف شؤونها الداخلية والخارجية من دون الرجوع إلى استانبول من خلال عقد المعاهدات الدولية منفردة مع الدول الأجنبية من دون الرجوع إلى الدولة العثمانية[31]، بحيث تبلورت الشخصية الوطنية للدولة الجزائرية على مختلف الصعد.

أما التغير الأهم في هذه المرحلة فيتمثل في التغيرات الاجتماعية والديمغرافية في الجزائر والإيالات المغاربية، التي عرفت هجرات كبيرة من المهجرين الأندلسيين نحو الجزائر، الذين شكلوا وقودا محركاً للصراع العثماني الأسباني لإنقاذهم من قرارات الترحيل الاسبانية[32]، في المقابل شكل استقرار هؤلاء المهجرين في الإيالات العثمانية المغاربية تغيراً اجتماعياً واقتصادياً إيجابياً في مجمله[33]، لاسيما في السواحل الجزائرية، حيث يشير سعيدوني إلى المتغيرات الاجتماعية والمدنية التي أحدثها هؤلاء المهجرون الأندلسيون في مواضع استقرارهم الجزائرية لاسيما في توسع عمران المدن[34]، إلى جانب الاستقرار والتوطن الكثيف للعناصر التركية الأناضولية، والزنجية الأفريقية، والمسيحيين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي في هذه المجتمعات وبروز شريحة الكراغلة الفاعلة في الإيالات المغاربية[35]، وهذه المتغيرات في

مجملها شكلت تحولات في حياة الإيالات العثمانية في المغرب العربي يمكن أخذها في الاعتبار عند التحقيب التاريخي للعصر الحديث.

وبالعودة إلى مؤرخنا سعد الله وقضية التحقيب، نجد أنه يخاطب فكرياً المؤرخين الجزائريين والعرب، الذين قدموا سيلاً من البحوث والدراسات العربية المعاصرة التي ترسخ للتقسيم الثلاثي الأوروبي، وعدها تقع في دائرة **(التقديس المنهجي)** للنموذج الأوروبي في دراسة وتدريس التاريخ، فصار تقليداً له مناصروه من خلال دراساتهم للحقبة العثمانية في العالم العربي التي غطت تاريخ العرب الحديث[36]، لاسيما أولئك المؤرخون الأكاديميون الذين عمدوا إلى التسليم بالتحقيب الثلاثي، والتنظير إلى بداية تاريخ العرب الحديث، في ذات وقت بدء تاريخ النهضة الأوروبية الحديثة[37]، وبين هذين الرأيين تتعدد الرؤى والاجتهادات العربية لتحقيب بداية التاريخ الحديث، والتي يغلب عليها اعتماد **الحدث الوطني** لكل قطر في بداية هذه الحقبة التاريخية.

يصاحب رفض التحقيب الثلاثي عند سعد الله طرح رؤيته لبداية تاريخ الجزائر الحديث من بداية الاحتلال الفرنسي لبلاده سنة 1830م، ويقترح تعميم هذا الطرح بقوله:" **ويمكن أن يقاس على ذلك في جميع أنحاء الوطن العربي، فالتاريخ إذن يجب أن يخضع لعملية التحول الداخلي في المجتمع الذي نؤرخ له إذ لا يمكن تطبيق ظاهرة خارجية عليه تقليداً وعرفاً، لا حقيقة وواقعاً**"[38]، وهذا الطرح العقلاني من مؤرخنا يحتمل الكثير من الجدل والتحفظ، إلى حد قد يوصم بأنه يعمق حالة التجزئة التاريخية بين أجزاء الوطن العربي وحتى العالم الثالث، وهو المعروف بنضاله التقدمي ورفضه لدعوات الأقلمة في التاريخ الجزائري[39]، بل إن اتخاذه لبداية الاتصال القسري المباشر مع الاستعمار الغربي كنقطة بداية للتاريخ الحديث، يحيل إلى كثير من محاولات التحقيب المماثلة الداعية لحالة من التميز الوطني لدول أخرى.

حيث طرح بعض المؤرخين ذات الطرح، القائل ببداية التاريخ الحديث مع بداية الصدام الاستعماري مع القوى الغربية، وطرح البعض بداية مقترحة لتاريخ المشرق العربي الحديث **بالحلمة الفرنسية على مصر عام 1798م**، بعدّها تمثل بداية اتصال المشرق العربي بالغرب الأوروبي، وهي بداية "**التمدن**" العربي، أو بداية "**يقضة العرب**" في التاريخ الحديث[40] بعد خروجهم عنوة من الانعزال العثماني إثر هذه الحملة[41] وهو الطرح الذي تعدد مناصريه.

حيث يطرح المؤرخ عمر عبد العزيز عمر ذات الفكرة، ويعتقد بأن تاريخ مصر الحديث يبدأ مطلع القرن التاسع عشر، أي بمجيء الحملة الفرنسية وما تبعها من تولي محمد علي باشا، ومحاولاته لتحديث مصر، ويدلل على هذا الطرح بأدلة تتناغم إلى حد كبير بما استدل به سعد الله، حيث لا تعدُ مجيء العثمانيين مرحلة فاصلة أو حاسمة في حركة استمرار التاريخ المصري، إذا لم يؤد الفتح العثماني لمصر سنة 1517م وغيرها من الأقطار العربية، إلى "**عثمنة**" تلك الإيالات الخاضعة لحكم الدولة العثمانية التي اتبعت مبدأ ترك العناصر الأصلية في حكم الإيالات المفتوحة، مع تعديلها التعديل الذي يضمن لها بقاء السيادة، والسيطرة، وتقاضي ثمنها[42]، وهي ذات الممارسات التي يؤكدها سعد الله في الجزائر حيث اكتفت السلطة العثمانية المركزية في إدارة الأقاليم "**بوجود قاض يدير الأحكام باسمها، وبوجود حامية صغيرة من الجيش والدعاء للسلطان العثماني في الخطبة**"[43]، وقد يؤول هذا الطرح التحقيبي إلى تبرئة ساحة العثمانيين مما نسب إليهم من ممارسات في الولايات العربية.

وهذا الطرح "العقلاني" قد يزيد في حالة الجدل والاختلاف بين المعنيين بدراسة تاريخ العرب الحديث، الذي يعد التحقيب له من مشاكله الراهنة والمزمنة، لكونه من المفاهيم الأساسية لدراسة التاريخ، وضرورياً للبناء التاريخي، وأمام طرح سعد الله هذا، والطروحات العربية الأخرى تجعلنا أمام مظهر غير موضوعي للتحقيب يرتبط وإلى حد بعيد بموقع المؤرخ في الحاضر، والذي ينظر من خلاله إلى الماضي والمستقبل الأمر الذي يترتب عليه من الناحية

العملية تعدداً وتنوعاً مخل في التحقيبات العربية المقترحة، سواء على التواريخ القومية، أو الوطنية، أو حتى المحلية، نتيجة تعدد واختلاف المعايير والاجتهادات المعتمدة من طرف بعض المؤرخين العرب من مشارقة ومغاربة.

وتأسيساً على رؤية سعد الله لبداية الحقبة الحديث في الجزائر، والعالم العربي، فإن كثيراً من الدول العربية الحديث وكذلك البلدان الأفريقية قد تأخر إلى بداية القرن العشرين عند وقوع احتلالها من قبل القوى الاستعمارية (ليبيا 1911م، المغرب 1912م، العراق 1916م)، وعلى هذا المنوال تتزايد إشكاليات التحقيب الذي يطرحه، والذي ظل في تقديرنا في دائرة الرؤى المعرفية المطروحة للجدل والنقاش، ولم يعرف طريقه إلى التطبيقات العملية حتى في إنتاج المدرسة التاريخية الجزائرية، الذي يعد مؤرخنا أحد روادها المؤسسين، حيث تشير رسائلها ومذكراتها الجامعية المنجزة خلال الفترة من 1962–2012 م، إلا أن التحقيب الثلاثي للتاريخ هو السائد في تلك الأعمال الأكاديمية[44] الأمر الذي يعني أن طرح مؤرخنا سعد الله قد جاء في سياق الدعوة إلى تجديد الكتابة التاريخية، والذي يعني أن كل تجديد في كتابة التاريخ ليس سوى إعادة النظر في التحقيب المستخدم، وهي الدعوات المتزايد بهدف دفع حيوية جديدة للدراسات التاريخية العربية من حيث موضوعاتها وملامستها للمناطق المهمشة في الكتابة التاريخية الحالية[45]، ويراعي الخصوصيات التاريخية الوطنية لكل قطر من الأقطار العربية.

أم بشأن "**الحجة**" الرئيسة التي يستند عليها أبو القاسم سعد الله في رفض التحقيب الثلاثي، والبدايات الأولى للحقبة الحديثة في الجزائر العثمانية في مطلع القرن السادس عشر، الذي في تقدير مؤرخنا أنه لم يشهد متغيرات جذرية حاسمة في المجتمع الجزائري، والمجتمعات العربية، الرأي الذي ناقشنا بعض ملامحه فيما سبق، ويمكن الاستدلال بشأنه في الحالة الأوروبية ذاتها التي لم يكن عصر النهضة شاملاً للقارة كافة أو حتى واضحاً أو محدداً بعدد من السنين وإنما بشكل تدريجي، حيث تطلب وجود فترة انتقالية طويلة تتصادم وتتفاعل فيها المثل

والقيم والمفاهيم القديمة مع الجديد، حتى تستقر في أذهان الناس عملية التغيير ليبدأ بالتاريخ عصر يختلف عما سبقه في كل مناحي الحياة، وكثيراً ما يستدل في هذا المقام مثلاً بتأخر روسيا القيصرية عن العصور الحديثة إلى القرن الثامن عشر[46]، وغيرها من دول القارة الأوروبية.

في المقابل فإن الجزائر في اللحظة التاريخية للتدخل العثماني في مطلع القرن السادس عشر، هي غير الجزائر في القرون التي تلتها، حيث عرفت متغيرات سياسية جذرية لا يمكن إنكارها، ولعل من أبرزها وأهمها **تبلور شخصية الدولة الوطنية الجزائرية**، وتنامي قوتها ودورها البحري على الصعيدين الإقليمي والدولي[47]، وكما يصف ذلك سعد الله أن الجزائر أضحت خلال ثلاثة قرون من السيطرة العثمانية الاسمية غالباً" **قوة بحرية تسيطر على غربي البحر الأبيض المتوسط وعلى أجزاء مختلفة من شواطئ المحيط الأطلسي**"[48]، ولكن ذلك لم يشفع لهذه الحقبة في كتابات سعد الله التي أخضعها للتقييم ضمن غيرها من مراحل التاريخ الجزائري.

III. رؤية سعد الله للحقبة العثمانية في الجزائر:

تعد الحقبة العثمانية من تاريخ الجزائر، حقبة مهمة وحاسمة من تاريخ الجزائر الحديث، بعدّها حلقة وصل بين العهود الإسلامية، بأوضاعها الاجتماعية، وواقعها الاقتصادي، وتفاعلاتها السياسية، وبين الحقبة الاستعمارية وما حملته من هيمنة عسكرية، وتبعية حضارية، وتوجهات اقتصادية، وقناعات ثقافية، حيث اكتسبت الجزائر في العهد العثماني خصوصيتها المتميزة وأعطى للوطن الجزائري مواصفاته الخاصة ومقوماته الأساسية[49]، الأمر الذي ترتب عليه اهتمام المؤرخين الجزائريين بهذه الحقبة أيما اهتمام، وكان من رواد هذا الاهتمام المؤرخ أبو القاسم سعد الله الذي أرخ وبعث الروح في كثير من تراث ومصادر تلك المرحلة، الوثائقية

والمخطوطة، بالقدر الذي بلور لديه رؤيته لهذه الحقبة في الجزائر التي نحاول الاقتراب منها "اجتهاداً" في تفسير آرائه وتلميحاته تجاها.

قد يكون هاجس **(الهوية الوطنية الجزائرية)** من الهواجس الضاغطة على مسار مؤرخنا البحثي، الذي أضحى تحت ضغط هذا الهاجس: سياسياً، ومفكراً، وداعية وطنية، إضافة إلى كونه مؤرخاً أكاديمياً للتاريخ الجزائري الحديث، بوجهة نظر جزائرية[50]، التي تعني لديه "**استرداد العناصر الصالحة من حياتنا الماضية التي حاول المستعمرون طمسها**"[51]، وهو الاهتمام الذي زج به في أتون مواجهات ومناقشات لحقب التاريخ مع المؤرخين الذين تناولوا هذا التاريخ من الفرنسيين والعرب، وكانت الحقبة العثمانية في الجزائر من أبرز اهتماماته، والتي قادته إلى ثنائية: **التنديد** حيناً، و**التمجيد** أحياناً لتلك الحقبة "الوسيطية" في اعتقاده، أو فترة "الدولة الجزائرية العثمانية"[52]، على حد تعبيره.

وثنائية: **التنديد، والتمجيد** التي اقترحناها في دراسة سابقة كمصطلح إجرائي نحاول من خلاله اختزال المواقف من العثمانيين وعهدهم في الولايات العربية[53] الذي اتخذ المؤرخون والكتاب العرب، ومنهم مؤرخنا سعد الله الذي تراوح بين التمجيد والتنديد لهذه الحقبة تباعاً للحدث التاريخي ودلالته على الشخصية الوطنية للدولة الجزائرية[54]، وذات التمجيد الذي يصبح تنديداً بالعثمانيين وعهدهم في الجزائر مع كل حدث وممارسات سلطوية اتخذها رجالات ذلك العهد تجاه الجزائريين، أو "**بسبب الإجحاف والظلم والفساد الذي كان الأتراك يقومون به**"[55] في الايالة الجزائرية، كغيرها من الإيالات العثمانية، وهذان الموقفان المتضادان الرؤية للعهد العثماني.

تلك الرؤية التاريخية الثنائية تحيل المتمعن في إنتاج سعد الله عدد من الاجتهادات والاحتمالات حول ما يمكن أن نسميه بـ **(تطور رؤية)** سعد الله للحقبة العثمانية، تطوراً يمكن

رصد بعض ملامحه من خلال مؤرخاته من مطلع عقد الستينات من القرن العشرين، حتى مطلع الألفية الثالثة، أكثر من نصف قرن من البحث التاريخي، والكتابة المتأثرة بالتاريخ، تطورت خلالها رؤية سعد الله للحقبة العثمانية من: **التنديد، إلى التمجيد**، وهذه الفرضية التي نفترضها جاءت تحت ضغط اللحظة التاريخية التي عاصرها وتفاعل معها بإيجابية في كتاباته، الحالة التي يوجزها بقوله: "**المؤرخ هو ابن بيئته وظروفه وأسير ثقافته ووثائقه، ومن ثمة فهو مرآة شعبه، إن تعلق هذا بالعظائم عظم، وإن تشغل للصغائر صغر**"[56].

يبدأ سعد الله بالتأريخ للحقبة العثمانية من خلال طرح تلك التساؤلات الجوهرية العميقة، على غيره من المؤرخين: "**هل جاء العثمانيون إلى الجزائر غازين أو منقذين؟ وهل كان وجودهم خيراً وبركة على البلاد وأهلها أو كان شراً ونقمة عليها** ؟ و**هل كانت الجزائر في عهدهم مستقلة أو تابعة** ؟ إلى غير ذلك من التساؤلات التي مازالت لم تنته ولا نتوقع أنها ستنتهي ذات يوم"[57] وهي التساؤلات الأساسية الباعثة على الخصوصية في التاريخ الجزائري والمغاربي عموماً، ومبعث هذه الخصوصية الظرفية التاريخية للحضور العثماني في الإيالات المغاربية (طرابلس الغرب، تونس، الجزائر) كما سبقت الإشارة، والتي اتسمت فيها الإدارة العثمانية بالخصوصية عن الولايات العربية المشرقية، والأوروبية، لاسيما إيالة الجزائر، التي خضعت إلى إجراءات مختلفة عما هو الحال في الإيالات الأخرى، بسبب بعد الجزائر المكاني عن مركز الدولة في استانبول، والظروف الإقليمية المحيطة بها، وكون حالة الحرب المتواصلة مع القوى الأوروبية[58]، الأمر الذي جعل أهالي هذه الإيالة يطلبون العون والتدخل العثماني لنجدتهم.

وبالعودة إلى تساؤلات سعد الله حول الحقبة العثمانية، نلمس شكل من أشكال "القلق" البحثي، أو الاضطراب في الرؤية والمواقف بين المؤرخين المغاربة المهتمين بالعهد العثماني،

نظراً إلى منحنيات هذا العهد المديد في الإيالات المغاربية، وما في هذا العهد من سلبيات وممارسات سلطوية قاسية تجاه السكان المحليين، وإيجابيات تنصب أغلبها في تبلور النزعة الاستقلالية للدولة الوطنية في ظل الأسر الحاكمة المحلية[59]، ولاسيما الجزائر التي أخذت فيها الدولة الحديثة " **تتشكل فعلياً مع ظهور النفوذ العثماني مع بدايات القرن السادس عشر...بظهور مقومات الدولة، بعد أن ظلت هوية الجزائر الإقليمية غير واضحة المعالم ولقد برز هذا الكيان بالخصوصية في اختيار عاصمة ثابتة، ووضع أجهزة إدارية، وسن أنظمة اقتصادية، وإقرار أوضاع اجتماعية، وانتهاج علاقات سياسية خارجية تتلاءم وأوضاع البلاد الجزائرية آنذاك**"[60]، يقابل ذلك إسراف السلطات العثمانية المحلية في ممارساتها التقليدية، وإقصاء الجزائريين عن المناصب القيادية، وقصر وجودهم على الوظائف الدينية والمحلية.

في المقابل فإن حالة الشد للمشرق العربي، ورؤية مؤرخيه للدولة العثمانية كانت تؤثر في رؤية المغاربة، وهذا ما يعترف به سعد الله حول سيطرة المدرسة المشرقية في التاريخ[61]، أو المركزية المشرقية في دراسة التاريخ العثماني التي تنطلق من فرضية "**الانحطاط العثماني**" والنظرة السلبية لهذا العهد تحت تأثيرات الكتابات القومية، منذ أواخر القرن التاسع عشر، وأضحت رؤية وطروحات هؤلاء المؤرخين رؤى مستقرة كـ"المقدسات"[62]، وحسمت الكتابات العربية أمرها من خلال البعد الأيديولوجي القومي، والتنكر للتراث والماضي العثماني، بل أضحى الأمر أكثر مدعاة للمساجلات غير العلمية، مع أي محاولة تحيد عن هذا الخط البحثي القومي[63] أو عدم تفهم المؤرخين المشارقة لخصوصية العلاقات المغاربية العثمانية، بل فهم تلك الخصوصية في سياق إقصائي، عبرت عنه المؤرخة خيرية قاسمية بقولها: أن عدم فهم المغاربة لمفهوم العروبة، وأخذه لمدلول يتميز شيئاً ما عن المدلول الذي أخذه في المشرق العربي، بسبب الموقف من الدولة العثمانية[64].

وسط هذه الاعتبارات و "المحاذير" غير المرئية أرَّخ أبو القاسم سعد الله للحقبة العثمانية في الجزائر كأحد محاور اهتماماته الرئيسة في التاريخ، من خلال أبحاثه وآرائه التي عدها بكل تواضع، محاولات وآراء " **لا تدعي أنها تقدم الجواب الكافي الشافي على ما طرح ويطرح من أفكار حول المشاكل التاريخية**"[65] التي من أبرزها العهد العثماني في الجزائر، العهد الذي يرى في بعض مراحله بأنه الفصل الثاني من عهد الحروب الصليبية، ويرفض تسميته بعهد القرصنة من قبل الأوربيين[66].

يباشر حالة التنديد بالحقبة العثمانية من زاويتين رئيستين متتابعتين، هما: **حالة التخلف والانحطاط** لهذه الحقبة، ومن ثم **مدى مسؤولية تلك الحالة عن الاحتلال الفرنسي للجزائر**، وما ترتب عليها من نتائج بعيدة الأثر في المجتمع الجزائري بالقدر الذي جعله يقارن بينها وبين العهد العثماني، حيث المرحلة الاستعمارية بالنسبة إلى قضية اللغة، فإذا كانت المركزية العثمانية قد فرضت التركية، فإن المركزية الوطنية الحالية قد فرضت الفرنسية [67]، وهو هنا يستدعي التجربة التاريخية عن فوضى اللغة لمواجهة الراهن المعاش.

وهذا لا يعني خاطرة طارئة تعرض فيها للعهد العثماني، بل سعى سعد الله إلى التدليل التاريخي على أن العثمانيين انتهجوا مبكراً سياسة " **التتريك في الجزائر قبل المشرق العربي وهي العملية التي أحدثت ردود فعل مختلفة عبر ذلك الحكم من 1519-1830م تمثلت في الثورات أحياناً، والمحافظة على الاستقلال الداخلي أحياناً، والهجرة أحياناً ثالثة..**"، ولكن يعترف بأن عملية التتريك تلك ظهرت في شكل "**العثمنة**" لا التتريك[68]، وفي مواضع أخرى من مؤرخاته يتحدث عن التنوع اللغوي في الجزائر زمن العثمانيين، فالتركية هي اللغة الحكومية والعربية لغة الجمهور، أما الفرنسية فقد كانت لغة الأوساط القنصلية الأجنبية[69].

وفي سياق تناغم سعد الله مع مفهوم "الانحطاط العثماني" الذي برز في الكتابات التاريخية الأوروبية منذ أوائل القرن التاسع عشر، وهو المفهوم الذي دخل الكتابات القومية في الشرق العربي خلال فترة أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، مردداً لصدى وجهة النظر الأوروبية بشكل غير ناقد، ومستخدماً إياها لأسباب مختلفة تماماً[70] نجد أن سعد الله يتبنى هذا المفهوم في كتاباته التاريخية المبكرة.

ومن فرضية الانحطاط ينطلق سعد الله في تقييم العهد العثماني في الجزائر، العهد الذي " **لم يحاول أبداً أن يعيش العصر الحديث الذي كانت تحياه أوروبا، بالعكس لقد أغلق جميع النوافذ، وقبع في حدوده القديمة، مما جعل البلاد تعاني من حكم الإقطاع، وظلم الحكام والجهل والتخلف العلمي، فكانت النتيجة أن احتل جيش فرنسا الجزائر**"[71]، ولعل قضية المسؤولية عن الاحتلال كانت الحدث الأكثر تأثيراً في رؤية سعد الله للحقبة العثمانية، كغيره من المؤرخين المغاربة الذين عدوا عجز العثمانيين عن المحافظة على إيالاتهم التي حكموها واستغلوها لقرون، مدعاة للتنكر للماضي العثماني، وتحميله المسؤولية التاريخية لما آل إليه مصيرها[72].

وللتدليل على حالة التخلف ونفور الجزائريين من العثمانيين **الأتراك** عمد سعد الله إلى إبراز ملامح ذلك الانحطاط في بعض مؤرخاته، ومنها استدلاله باستخدام شيخ الإسلام عبدالكريم الفكون لمصطلحي "**العجم**" و "**الترك**" للدلالة على هذه الفئة المتميزة عن المجتمع القسنطيني بعدّها فئة غريبة عنه تعيش معه ولكن عالة عليه[73]، وغير ذلك من مظاهر التسلط التي مارستها الإدارة العثمانية في الجزائر، لاسيما طائفة الانكشارية الذين " **انفصلوا عن المجتمع الجزائري، واحتقروا باقي الفئات المكونة لمجتمع الايالة، وكان ذلك محاولة منهم للحفاظ على امتيازاتهم وسطوتهم السياسية والعسكرية، إلا أن ذلك لم يمنعهم من إقامة علاقات مع السكان المحليين الذين تربطهم بهم علاقة الدين الإسلامي، أو مع الفئات الأخرى بدافع المصلحة أو**

الحاجة، وكان من مظاهر هذا التقارب إقبال هؤلاء الجنود على الارتباط بالأهالي عن طريق الزواج"[74] حيث عُني سعد الله هنا بحالة العداء بين الجزائريين، وجنود الانكشارية الأتراك في اللحظة التاريخية الفارقة عند بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م، عداء أو نفوراً حاداً أحسن الفرنسيون استغلاله أيما استغلال في عملية الاحتلال.

يركز سعد الله عند تأريخه لبداية الاحتلال الفرنسي على حالة انفراد الأتراك بالسلطة في الجزائر، وإثقال كاهل الجزائريين بالأعباء الجبائية، فشاع السخط بين الجزائريين على هذه السلطة "**واستغل الفرنسيون هذا العامل النفساني**"[75] عند احتلالهم للبلاد وكان للإجراءات المتخذة من قبل قيادات الحملة الفرنسية ضد الانكشارية، من حل لهذه الطائفة، وترحيلها من الجزائر محل ترحيب من قبل الطائفة اليهودية[76]، وشجع الفرنسيون على مطالبة الأهالي بالتعاون معهم ضد الأتراك[77].

وهنا يمكن القول: إن رؤية ومنطلقات سعد الله السلبية اتجاه الحقبة العثمانية في الجزائر لم تكن نابعة من فرضية الانحطاط العثماني التي قال بها المؤرخون الأوروبيون، والعرب المشارقة، بل نتيجة إلى سبر مؤرخنا لتراث الجزائر في العهد العثماني، وممارسات إدارته تجاه الجزائريين، الأمر الذي جعله يشخص العلاقة القائمة بين السلطة الانكشارية في الجزائر والسكان المحليين من دون التنكر للبعد الديني الذي يجمع بين الطرفين التي يصيغها في قالب تاريخي متوازن، فمن جهة فإن التزامات الجزائريين تجاه الخلافة العثمانية كانت تمنع الجزائريين من الخروج عن هذا الإطار العام للدولة[78]، ومن جهة أخرى فإن الشخصية الجزائري الرافضة للاستعمار أو أي ممارسات سلطوية مستبدة قابلة للثورة ضد ممثلي الخلافة العثمانية في الجزائر، ومن ذلك ما شهده إقليم قسنطينة من ثورات ضد الحامية العثمانية

وممارستها[79] التي وعلى الرغم من شدتها وآثارها على الجزائر إلا أنه يرفض وسم عهدها **(بعهد القرصنة)**[80] في الجزائر.

ويتخذ أبو القاسم سعد الله **نهجاً تمجيديًّا** للحقبة العثمانية في بعض آثاره، لاسيما المتأخرة منها والتي تناولت البدايات الأولى للتدخل العثماني في الجزائر من خلال تحليله لطبيعة الصراع القائم في غرب البحر المتوسط بين المسيحية والإسلام، أو أسبانيا والدولة العثمانية التي وقفت في وجه المد الغربي المسيحي "**ومن ثمة يبرز دور الدولة العثمانية في حماية العالم الإسلامي والدفاع عنه**"[81]، ويعترف بدور العامل الديني وأهميته في التفاف الجزائريين حول العثمانيين الذين ظهروا على المسرح كحماة للإسلام ولكن كثيراً من السكان لم يفهموا من ذلك الانضمام إلى الحكم العثماني بصفة دائمة، بل اعتقدوا أنه مجرد تحالف مؤقت وتعاون لدفع الخطر المشترك[82] الذي أضحى عهداً مديداً للحكم العثماني في الجزائر التي تجمع الدراسات التاريخية على أهمية هذا العهد في التأسيس للدولة الجزائرية الحديثة والمعاصرة.

إن القراءة المتأنية لبعض آثار عميد المؤرخين الجزائريين حول الحقبة العثمانية في الجزائر أوضحت بجلاء النهج المتميز الذي انتهجه المؤرخ في دراسة التاريخ الجزائري أثناء العهد العثماني بعيدا قدر الإمكان عن الجدل، والمناقشات والرؤى الأوربية أو العربية لهذا العهد، بحيث كانت قضيته الأساسية التأريخ للوطن الجزائري في هذه المرحلة التأسيسية، فجاءت كتاباته متميزة ذات خصوصية بين التنديد والتمجيد للحقبة العثمانية، تبعا لما تجود به عليه مصادره التاريخية المتعددة من مادة علمية، وبعيداً عن تبني أحد الطروحات البحثية السائدة في المشهد التاريخي العربي المعاصر تجاه الحقبة العثمانية، مع حالة من الالتزام برؤيته التي تراعي خصوصية النظرة المغاربية لهذه الحقبة التاريخية.

هوامش البحث:

(1) حول هذا الجدل يمكن مراجعة : محمد عفيفي، عرب وعثمانيون: رؤى مغايرة، دار الشروق، القاهرة، ط2، 2008، و العلاقات العربية التركية، أعمال المؤتمر الثاني للعلاقات العربية التركية ديسمبر 1982، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس1988، و العلاقات العربية التركية من المنظورين العربي والتركي، إشراف: كمال الدين إحسان أوغلي ومحمد صفى الدين أبو العز، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ومركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، 1993.

* شيخ المؤرخين الجزائريين ابو القاسم سعد الله 1930– 2013م عمل استاذ للتاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الجزائر، وخلف ارث من الدراسات، والتحقيقات التاريخية، والادبية حتى عدّ عميد المؤرخين الجزائريين.

(2) أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، الدار العربية للكتاب، ليبيا–تونس، 1976م، ص62.

(3) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، الجزء الأول، دار البصائر، الجزائر، مقدمة ط 3،2007. ص3.

(4) رجائي ريان، مدخل لدراسة التاريخ، دار ابن رشد للنشر والتوزيع، عمان، 2001، ص67.

(5) صدرت هذه الموسوعة في طبعات أهمها: طبعة دار الغرب الإسلامي في بيروت، وطبعة دار البصائر بالجزائر والتي اعتمدنا عليها في اغلب الاستشهادات المرجعية لهذا البحث.

(6) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، الجزء الأول، مقدمة الطبعة الثالثة،ص4.

(7) محمد عفيفي، عرب وعثمانيون: رؤى مغايرة، دار الشروق، القاهرة، ط2، 2008، ص5.

(8) كارل بربير، الذاكرة، والتراث، والتاريخ: التركة العثمانية في العالم العربي، ترجمة: عبد اللطيف الحارس، مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد للأبحاث، بيروت، السنة الحادية عشرة، العدد الرابع والأربعون، خريف 1999م، ص179.

(9) ينظر: العلاقات العربية التركية من المنظورين العربي والتركي، إشراف: كمال الدين إحسان أوغلي ومحمد صفى الدين أبو العز، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ومركز الأبحاث للتاريخ والفنون الإسلامية، استانبول، 1993.

(10) ناجي علوش، المشروع القومي من الدفاع إلى الهجوم، الدار العربية للكتاب ليبيا، تونس 1991، ص50–51.

(11) سلامة كيلة، النزعة العثمانية في الفكر العربي الحديث، مناقشة لأفكار عبدالاله بلقزيز، مجلة الوحدة، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، السنة6 العدد 61–62، أكتوبر، نوفمبر 1989، ص228–230.

(12) وجيه كوثراني، وثائق المؤتمر العربي الأول، ص9.

(13) فاطمة قدورة الشامي، علم التاريخ، تطور مناهج الفكر وكتابة البحث العلمي من أقدم العصور إلى القرن العشرين، دار النهضة العربية، بيروت، 2001، ص125، 126.

(14) خيرية قاسمية، مداخلة في ندوة: نحو رؤية جديدة لتاريخ العرب الحديث، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، السنة الثانية، العدد السابع، مايو 1979، ص171.

(15) خيرية قاسمية، المداخلة، نفس المرجع السابق، ص174.

(16) عبد الكريم غرايبة، الثورة العربية الكبرى، ضمن: بحوث ودراسات في التاريخ العربي مهداة إلى الأستاذ الدكتور نور الدين حاطوم، تحرير: ناظم كلاس، دار شمال للطباعة والنشر، دمشق، 1992، ص250.

(17) أحمد صدقي الدجاني، مداخلة في ندوة: نحو رؤية جديدة لتاريخ العرب الحديث، مرجع سابق، ص175.

(18) خيرية قاسمية، المداخلة، مرجع سابق، ص174.

(19) وجيه كوثراني، وثائق المؤتمر العربي 1913، دار الحداثة، بيروت، 1980م، نص رسالة الأمير خالد الجزائري في الملحق رقم 47 ص196.

(20) أبو القاسم سعد الله، الجزائر والقومية العربية، ضمن : منطلقات فكرية، مرجع سابق، ص 114.

(21) عبد الكريم بوصفصاف، ودلال لواتي، حوار مع عميد المؤرخين الجزائريين الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، مجلة الحوار الفكري، مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة منتوري، قسنطينة، السنة الرابعة العدد السادس، سبتمبر 2004، ص20.

(22) ينظر على سبيل المثال: إسماعيل نوري الربيعي، العرب والاستعمار، إشكالية الهوية والوعي في تاريخ العرب السياسي الحديث، إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة 2000، وإسماعيل احمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، ط2، 1998م.

(23) أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص5.

(24) محمد حواش، ملاحظات واجتهادات حول مسألة التحقيب في التاريخ الربي (ضمن: التحقيب، التقليد والقطيعة والسيرورة) منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط جامعة محمد الخامس، سلسلة ندوة ومناظرات رقم 61-1997، ص103.

(25) أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، مقدمة الطبعة الثانية، ص5.

(26) محمود سعيد عمران، معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، 1982م،ص21.

(27) أبو القاسم سعد الله، في الجهاد الثقافي، منطلقات فكرية، مرجع سابق، ص61.

(28) أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص5.

(29) عبد المجيد نعنعي، أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة 1453-1848، دار النهضة العربية، بيروت، 1983، ص9.

(30) أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، ص17-18 وغيرهما.

(31) تركي بن عجلان الحارثي، الوجود العثماني في تونس، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العلوم الإنسانية والاجتماعية، الرياض، العدد الرابع، رجب 1428هـ، ص19-21.

(32) أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، مرجع سابق، ص12.

(33) نزيهة الرجيبي، الهجرة الأندلسية وأثرها على منطقتي تونس وليبيا، رسالة ماجستير قدمت لمركز البحوث والدراسات العليا بجامعة الزاوية في العام الدراسي 2003-2004 ص67-90.

(34) ناصر الدين سعيدوني، الأحوال الصحية والوضع الديمغرافي بالجزائر أثناء العهد العثماني، المجلة التاريخية المغربية، تونس، السنة الثانية عشر، العدد 39-40، ديسمبر 1985، ص431.

(35) فاتح رجب قدارة، الكراغلة في التاريخ الليبي الحديث، المؤتمر الدولي الخامس: العرب الترك عبر العصور، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قناة السويس، الإسماعيلية، 2013، ص467-471.

(36) إبراهيم خليل أحمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1516-1916م، منشورات جامعة الموصل، الموصل 1986م، ص24-25.

(37) جلال يحيي، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1999، ص9.

(38) أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص6.

(39) أبو القاسم سعد الله، الجزائر والقومية العربية، منطلقات فكرية، مرجع سابق، ص109.

(40) جلال احمد أمين، المشرق العربي والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط3، 1981، ص17.

(41) علي المحجوبي، العالم العربي الحديث والمعاصر، تخلف فاستعمار فمقاومة، دار محمد علي الحامي، صفاقس، ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2009، ص28.

(42) عمر عبد العزيز عمر، في تاريخ مصر الحديث والمعاصر،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،1991، ص12-15.

(43) أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، مرجع سابق، ص14-15.

(44) علاوة عمارة وآخرون، نصف قرن من البحث التاريخي بالجامعة الجزائرية 1962-2012، منشورات كلية الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسطنطينة، 2013.

(45) عقيل البربار، تاريخ ليبيا الحديث، منهج بنيوي مقارن، مجلة الأكاديمية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، الدار الأكاديمية للطباعة والتأليف، طرابلس، العدد الثاني، ربيع 2009، ص27-28.

(46) محمد مظفر الادهمي، دراسات في التاريخ الأوروبي الحديث، عصر النهضة والثورة الفرنسية، مكتبة المعارف، الرباط 1984، ص13-14.

(47) محمد أمين، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، مطبعة آنفو، برانت فاس 2011، ص65.

(48) أبو القاسم سعد الله، الجزائر والحملة الفرنسية 1830، مرجع سابق، الجزء الأول، ص243.

(49) ناصر الدين سعيدوني، واقع وآفاق الدراسات العثمانية بالجزائر، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة معسكر، ع7، ديسمبر، 2012، ص10.

(50) أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص9.

(51) أبو القاسم سعد الله، الشخصية والثقافة في الجزائر، ضمن منطلقات فكرية، مرجع سابق، ص83.

(52) أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص51.

(53) فاتح رجب قدارة، الدراسات العثمانية بالجامعات الليبية بين التنديد والتمجيد، بحث غير منشورة، جامعة الزاوية، 2015، ص2.

(54) أبو القاسم سعد الله، علج علي والدولة العثمانية، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، الجزء الرابع، ص190.

(55) أبو القاسم سعد الله، الجزائر والحملة الفرنسية، مرجع سابق، الجزء الأول، ص246.

(56) أبو القاسم سعد الله، إشكالية الكتابة التاريخية، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص9.

(57) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، مقدمة الطبعة الأولى، الجزء الأول، ص9.

(58) فاضل بيان، الدولة العثمانية في المجال العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007.

(59) الشيباني بنبلغيث، أبحاث في تاريخ تونس الحديث والمعاصر، مكتبة علاء الدين، صفاقس 2008، ص249–250.

(60) إبراهيم الونيسي، الخلفيات التاريخية، لانبعاث الدولة الجزائرية المعاصرة وركائز نظامها السياسي إلى غاية 1992–مجلة الحوار الفكري، مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة منتوري، قسنطينة، السنة 5، ع7، ديسمبر 2005، ص99.

(61) عبد الكريم بوصفصاف، ودلال لواتي، حوار مع عميد المؤرخين الجزائريين الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص20.

(62) كارل بربير، الذاكرة والتراث والتاريخ، التركة العثمانية في العالم العربي، مرجع سابق، ص178–180.

(63) سلامة كيلة، النزعة العثمانية في الفكر العربي الحديث، مرجع سابق، ص228.

(64) مداخلة خيرية قاسمية في ندوة:ة نحو رؤية جديدة لتاريخ العرب الحديث، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، السنة الثانية، العدد السابع، مايو 1979، ص174.

(65) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الأول، ص 11، مقدمة الطبعة الأولى.

(66) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الأول، ص 19، مقدمة الطبعة الأولى.

(67) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، الجزء الرابع، إشكالية الكتابة التاريخية، ص9.

(68) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الجزء الأول، ص182.

(69) أبو القاسم سعد الله، الجزائر والجملة الفرنسية سنة 1830، مرجع سابق، الجزء الأول، ص247.

(70) كارل بربير، الذاكرة والتراث والتاريخ، مرجع سابق، ص191.

(71) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، الجزء الأول، ص5.

(72) فاتح رجب قدارة، الدولة العثمانية في آثار الشيخ الطاهر الزاوي، المجلة الجامعة، حولية جامعة الزاوية، العدد السادس عشر، المجلد الرابع، نوفمبر2014، ص 18.

(73) أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986، ص19.

(74) حنيفي هلايلي، الحياة الاجتماعية للجيش الانكشاري في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة الحوار الفكري، مرجع سابق، السنة الرابعة، العدد السادس، سبتمبر 2004، ص133.

(75) أبو القاسم سعد الله، الجزائر والحملة الفرنسية، مرجع سابق، الجزء الأول، ص246.

(76) أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص56.

(77) أبو القاسم سعد الله، الجزائر والحملة الفرنسية، مرجع سابق، الجزء الأول، ص265.

(78) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص243.

(79) أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، مرجع سابق، ص15.

(80) أبو القاسم سعد الله، منهج الفرنسيين في ضمن كتابه : أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ج1، ص19.

(81) أبو القاسم سعد الله، علج علي والدولة العثمانية، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص186.

(82) أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، مرجع سابق، ص13.